

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

على ميماد — في بناء الجبل الجديد — ظرف الكنان
ضيق القاهرة — شارع الشريف وغطت الشريف

على ميماد

مع مَنْ؟ مع الربيع بعد أن كاد يخلف الميماد
في صباح كل يوم من هذه الأيام أطالع وجود الأشجار
الضواحيك ، عانى أنسى عبوسها في الشتاء الذي طال ثم طال ،
إلى حد الإملال . ومن العجب أن أرى أشجاراً لم تورق بعد ،
كأنها تخشى أن يكون انصرام الشتاء خيراً لم يقم على صحته
دليل . فلتقرأ هذه الأشجار هذا الكلام ، ولتصدق أننا
في « مايو » شهر الأزهار والرياحين

لا شتاء بعد اليوم من هذا العام ، فلنفرح بقدوم الربيع
الأول وهو مطلع الصيف ، إلى أن يجيء الربيع الثاني ، الربيع
الحقيقي في الديار المصرية ، وهو الذي يقع في الأشهر الثلاثة :
أغسطس وسبتمبر وأكتوبر ، وهي أشهر الصفاء والرخاء في
هذه البلاد

مرحباً بالصيف ، والصيف المصري جدير بالترحيب . فبفضله
تندرق نباتات في المساء لا تجود بمثلها الطبيعة في أي أرض .
والقيظ في مصر يُتَقَّى بالظل ؛ وفي غير مصر لا يُتَقَّى القيظ
إلا بوسائل يطلب عليها الافتعال

وطعم الظل في مصر لمهد الصيف جميل المذاق إلى أبعد
الحذر . ولا أدري كيف تركناه بلا تنويه فيما كتبنا عن
خصائص الطبيعة المصرية

ولا بد من النص على حقيقتين من حقائق الحياة في مصر
قبل أن أنسى وينسى الناس :

الحقيقة الأولى هي جمال الشتاء المصري قبل التمدن الحديث ،
ولا يعرف قيمة هذا الجمال إلا من نشأ في الريف ، فقد كان

هناك طعمٌ لذيذ للدفء في « القاعة المحمية » ، وكان لتلك
القاعات فضلٌ في خلق شعور السعادة بالتقلب على قسوة الشتاء
الحقيقة الثانية هي جمال الزير الملقى في أيام الصيف ، وهو
يمنح الماء طمأناً لا يمنحه الثلج بأي حال

وبالقرب من دار الرسالة حارة تسمى حارة الزير المعلق ، فمن
كان يجهل أصل هذه فليعرف أن « الزير المعلق » هو قصر
شيرين باشا . ولعل صاحب القصر سماه بهذا الاسم للمعنى المضمّر
في لطافة الزير المعلق أيام الصيف . وقد سجّل اسم هذا القصر
في قصيدة من قصائد الشاعر إبراهيم الدباغ ، أنعم الله عليه
بالشفاء ، فقد سمعت أنه مريض .

أما بعد فإذا أريد أن أقول ؟

هذا ربيع ، وهذا صيف ، وهذه ليالي النسائم الرفيقة
بمصر الجديدة والحيزة والمعادي وحلوان والزيتون

فأين صيوانك يا قلبي ؟ وأين أيامك ؟ وأين لياليك ؟ وأين
أحبابك كنت معهم على ميماد ؟

لقد بخلت الأقدار بالتلاق ، وتركنا نسطرع في لجج
اليأس المعجّاج

مضى الشتاء وأورقت أشجاره ثم أزهرت ، وما لك يا قلبي
أملٌ في إزهار ولا إزهار

الوجود كله ربيع ، فأين نصيبك من هذا الربيع يا قلبي ؟
ربيعك هناك ، فامض إليه إن استطعت ، وإن استطاعت
تلك الأزهار أن تطمس أبصار الرقباء

سيمر زمن وأزمان ، وستفعل المقادير ما تفعل بمصائر ممالك
وشعوب ، ثم يبقى لك هواك يا قلبي ، هواك الذي لا يجوز عليه
الخلود ، لأنه من أقباس الخلود

وهل يرف أحبابك هناك أنك معهم على ميماد ؟

لقد بثسوا من وفائك يا قلبي ، لأنك آثرت الكتمان ، فتي
تفتضح في هوامم ليمودوا مع الربيع ؟

أنتِ على بالي في كل وقت ، يا مَهْمَا لا تخطر إلا في البال
ولو أنني أستغفر الله كلما ذكرتك لم تُكتب عليّ ذنوبٌ

في بناء الجيل الجديد

أعتقد أن الأساس لبناء الجيل الجديد هو خلق الإيمان بالعدل في تقسيم الحظوظ ، بحيث يصير من المفهوم عند الجميع أن في مقدور كل فرد أن يصل إلى أعظم المناصب ، إذا زود نفسه بالزاد الذي يؤهله لما يتساقى إليه ، بلا احتياج إلى وسيط أو شفيع

ولكى نصل إلى هذه الغاية يجب أن نروض أنفسنا على فهم المراد من العدل ، فقد يصرخ ناس ثم يصرخون بدعوى أنهم لم يؤهلوا أنفسهم لخوض معارك الحياة واقتحام أسوار المجد . وهذه آفة لم يسلم منها الناس في أي زمان

نحن في الغالب نطالب بأكثر مما نستحق ، وندعى لأنفسنا حقوقاً لم نبذل في سبيلها ما يجب بذله من الجهود ، ثم نطيل التوجع والتفجع والتحسر على انعدام العدل . وهل عدنا مع أنفسنا حتى نطالب غيرنا بالعدل ؟

لا يجوز تضییع لحظة واحدة بلا استفادة علمية أو أدبية ، ولا يجوز تضییع لحظة واحدة في القيل والقال إذا كنا نريد أن نكون لنا في الحياة السامية مكان

ومن آفات الناس في هذا العصر أن تكون المظاهر غاية ما يطلبون ، فمن النادر أن نجد من يتشعق أن يكون نعيمه مقصوراً على التمتع الروحية ، ومن النادر أن نجد من يفرح لأن جيرانه في رعد وإن كان في حرمان

والاعتماد على الحكومة في جميع الشؤون أخطر آفات هذا الجيل ؛ فالحكومة هي التي تصدق بنى الناس بمفهم على بعض ، والحكومة هي التي تضمن وجود الرغيف في السوق ، والحكومة هي المسئولة عن كف يد القريب عن ظلم القريب

نحن نشغل بعدد المنافع عن عدد المآثم ، وننسى محاسبة أنفسنا على الكسل البغيض ، الكسل الذي يشل مواهبنا البكثونة ويضيفنا إلى جماعة التواكلين

ما هذا الذي نعاني من مكوارث وخطوب ؟

أقول هذا لأنني أعرف أننا لا نلتفت لغير المصاعب التي تساق إلينا من بعد ، وننفل عن المصاعب التي نخلقها بأيدينا ،

وهي المصاعب الناشئة عن غفوتنا الروحية والذوقية والعقلية . وصدق الرسول حين قال : « أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك »

الجهل اللدیم بقوانين الوجود هو الذي يجعلنا نلقى المسئولية على من لا يحملون عنا أية مسئولية ، والفرار من التبعات هو أعظم شواهد الخذلان

لو أنفقنا في محاسبة أنفسنا مئسار ما تنفق في محاسبة الحكومة والمجتمع لوصلنا في جهاد النفس إلى أشياء . ولو تجنينا على أنفسنا كما نتجنى على الحكومات والمجتمعات لتكشفت أنفسنا عن حقائق تهدينا في ظلمات الوجود

محاسبة النفس لا تقع إلا عند بقطة النفس ، فلنفهم أن رضانا عن أنفسنا في جميع الأحوال من دلائل السبات

وأغرب ما نتورط فيه أننا نبالغ في تعقب عيوب الحكومات والمجتمعات ، ثم ننتظر أن لا ترى فينا الحكومات والمجتمعات غير الجيل

وما هي الحكومة ؟

هي مجموعة أشخاص يتعرضون لما يتعرض له سائر الناس في الماملات الفردية والاجتماعية ، ومن حقهم أن يعاملوا بالعدل في الإساءة كما يحب أن يعاملوا بالعدل في الإحسان وما هو المجتمع ؟

هو تلك الخلائق المبتوتة في القرى والمدن والأسواق ، وهي على تنوعها العجيب قد تلتقي في المشاعر والمواطف من حين إلى حين وقد تخطى فننتوهم أن تلك الخلائق تعجز عن تعقب العيوب فيمن لا يرى فيها غير العيوب

والصلاح في الجيل الجديد سيُسأل أمام ضميره عن تجسيم المحاسن الأصلية في المجتمع ، وهي من التماسك الاجتماعي ، وبفضلها استطاع المجتمع المصري أن يقهر مصاعب كثيرة عانتها مصر من جيل إلى جيل

وخلاصة القول أني أدعو إلى محاسبة النفس قبل محاسبة الحكومة والمجتمع ، وأرجو أن يؤمن كل فرد بأنه حجر الأساس في بناء الحكومة وبناء المجتمع ، إن صحت النية على أن نكون من رجال الأخلاق

ظرف الظاهر

في يوم واحد ظهر لي مقال في مجلة الرسالة ومقال في مجلة الإثنين رداً على الأستاذ عباس محمود العقاد؛ ومع أن المآني واحدة أو كالأحادثة في المقالين فقد اختلف الأداء كل الاختلاف، فما السر في ذلك؟

يرجع السر إلى ظرف المكان، فقد بدا لي العقاد في «الإثنين» وهو خصم، وبدا لي في «الرسالة» وهو زميل، وما أبعد الفرق بين الخصم والزميل!

قال قائل: إن اللطف الذي بدا في مقال الرسالة بدد العنف الذي ظهر في مقال الإثنين - وأقول إنني لا أندم على كلمة الخير بأي حال. وليس في نيتي أن أصطنع العنف في معاملة زملائي، إلا أن يخرجوني. والرجل النضبان يستبيح ما لا يباح

وأنا مع ذلك أشعر بفداحة الخسارة في المراك الذي تار بيني وبين الأستاذ العقاد؛ فلا هو وصل إلى شيء، ولا أنا وصلت إلى شيء، لأن ذلك المراك لم يزد عن ملاحاة لا أرضاها منه ولا يرضاها مني

خصوصتي مع الدكتور طه حسين هدنتني إلى حقائق أدبية وفلسفية

وخصوصتي مع الأستاذ أحمد أمين كانت السبب في أبحاث جياذ أفصحت فيها عن سرائر الأدب العربي

وخصوصتي مع الأستاذ توفيق الحكيم كانت السبب في أن أنشيء مقال عن «رجال الأدب ورجال القضاء»

وخصوصتي مع الأستاذ إبراهيم المازني كانت الباعث لبحث مواهب الشعرية

فما مصير خصوصتي مع الأستاذ العقاد؟

إن بوادرها لا تبشر بالخير، فهل تقع معجزة تحوّلها إلى الاختصاص حول حقائق تكون دساتير في فهم أصول الأدب والبيان؟

أنا أنتظر أن نخوض في أحاديث تصل بنا إلى نفائس، وأتكره أن تكون الممارك الأدبية في مصر مقصورة على مجادلات ينفر منها الذوق في أكثر الأحيان

وإلى اللقاء على صفحات «الرسالة» الصديقي

ضيوف القاهرة

كان من المألوف أن يصطاف المصريون في فلسطين أو سورية أو لبنان، ليندموا بالرخاء الذي لا تعرفه مصايف الإسكندرية أو رأس البر أو بور سميد، فما تمتع بلد قبل هذه الحرب بمثل الرخاء الذي كان يتمتع به أهل فلسطين ولبنان

واليوم نسمع أن تلك البلاد تعاني متاعب عنيفة من الغلاء ونرى بين أعيانها أفواجا تزور القاهرة لتعيش في رفاة بضعة أسابيع، فما الذي نضنع في إكرام أولئك الضيوف؟

بمعز على أن أعترف بأننا لم نتخذ خطة واضحة في استقبال من يزور مصر من أبناء الشرق العربي والإسلامي. وإلى وزير الشؤون الاجتماعية أوجه هذا الحديث

شارع الشريف غيظ الشريف

في يناير سنة ١٩٣١ شكّا إلى السيوفوشيه مراسل «الأهرام» في باريس من أن جريدة الأهرام لا تدعو إلى الإقامة في القاهرة شهراً أو شهرين من كل عام، ليعرف الجو السياسي فيراعيه فيما يرسل من البرقيات

وفي أغسطس من سنة ١٩٤١ زرت مدينة المنصورة لأتحدث مع الأستاذ الزيات فيما يجب أن تراعيه من التوجيهات الأدبية والاجتماعية

وفي إحدى السهرات قال فلان: هل سمعتم باسم الشارع الجديد؟

— وما اسم الشارع الجديد؟

— شارع الشريف الرضي

فابتسم الأستاذ الزيات وقال: هذا من وحي الدكتور المبارك وفي يناير من سنة ١٩٤٢ رفعت قضية شغمة على غيظ مجاور أملاك في سنتريس. ولم آكن أملك من ثمنه غير دنائير كسبتها من كتاب «عبقريّة الشريف الرضي»، وقد كسبت القضية وسميت الغيظ «غيظ الشريف»

أمر الأرواح عجب في عجب، وما أنجب أمور الأرواح!